مخطوطات ومطبوعات

ظهر الاسلام [1]

تأليف الأستاذ احمد امين

يقع هذا الكتاب في ثلاث واربعين وثلاث مئة صفحة . من القطع الكبير . حسن الطبع والترتيب والتبويب . وهو « يبحث في الحالة الاجتماعية ومراكز الحياة العقلية من عهد المتوكل الى آخر القرن الرابع الهجري » .

بدأ المؤلف كتابه بوصف المملكة الاسلامية في ذلك العهد ، فذكر كيف دخل العنصر التركي في هذه المملكة ، وما كان له من أثر في الحياة السياسية والاجتماعية . ثم ما كان بعد ذلك من نزاع — كان من قبل بين الفرس والعرب — فأصبح بين العرب والفرس والترك . يقول : « وكان العرب قد ضعف أمرهم في نزاعهم مع الفرس ، فجاءت قوة الترك ضغثاً على ابالة . وأخذ التاريخ الاسلامي يصطبغ بالصبغة التركية . وتحركت العصبية ضد الأتراك ، حتى ان المعتصم وهو الذي جلبهم ، اخذ — على ما قيل — ينكر أمرهم ، وجعل المحدثون يضعون الأحاديث في ذم الترك ، تعبيراً عن شعورهم وشعور الناس .

ثم جاء المتوكل — وقد مضى على مجيء الترك اثنتا عشرة سنة ، تمكنوا فيها من الأرض ، وعرفوا الناس والبلاد ، وخدمتهم الحوادث في اعلان سلطانهم — فاذا باتياخ وهو غلام تركي كان طباخاً ، يصبح صاحب السلطان ، وبيده معظم الأمور ، واصبحت امور الدولة في يد الأتراك ، واصبحوا مصدر قلق واضطراب . فهم يكرهون الفرس والعرب ؛ وهم انفسهم ليسوا في وفاق بعضهم مع بعض . وهم لا ينقطعون عن المؤامرات والدسائس ، وتعصب كل فريق لقائد منهم ؛ وهم

---

(١) تأخر نقد هذا الكتاب لأسباب قاهرة .

كثيرو الطمع في الأموال لا يشبعون . وعلى الجملة فقد أصبحت دار السلام وما حولها ، ليست دار سلام »

يقول : « ورأى المتوكل ان يتخلص من الأتراك ، ويعيد الدولة سيرتها الاولى . ولكن ابنه المنتصر كان يشايعهم . فعزم المتوكل ان يفتك بابنه المنتصر ، ويقتل وصيفاً وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم ، وعزموا هم على الفتك به . فكان ذلك مفترق الطرق : ان نجح زالت دولة الاتراك وعادت غلبة الفرس ، ورجعت الأمور الى ما كانت عليه . ولكن شاء القدر ان ينجحوا هم ، فتقدم باغر التركي حارس المتوكل ينفذ مؤامرة دبّرها القواد الأتراك ، وعلى رأسهم بغا الصغير ، ومعه عشرة غلمان من الأتراك ، وهم متلثمون والسيوف في أيديهم ، وصعدوا على سرير الملك ، وضرب باغر المتوكل بالسيف فقده الى خاصرته ، ثم ثناه على جانبه الأيسر ، وفعل به مثل ذلك . وأقبل وزيره الفتح بن خاقان يمانعهم ، فبعجه واحد منهم بالسيف في بطنه ، فأخرجه من متنه .

ولم يكن قتل المتوكل اعتداء على المتوكل وحده ، بل هو قتل لسلطان كل خليفة بعده . ولم يكن قتله بيد باغر وحده ، بل بيد الأتراك . وكان في قتله حياة الأتراك وسلطانهم ، وانذار عام لبيت المالك : أن من أراد ان يلي الخلافة ، فليذعن اذعاناً تاماً للأتراك ، ومن حدثته نفسه — من الخليفة فمن دونه — ان يناوئهم فليوطن نفسه على القتل .

وهكذا كانت هذه الحادثة مصرع الخلافة ، ومجد الأتراك ، فكان الخليفة بعده خاتماً في اصبعهم او أقل من ذلك ، حتى قنع بالسكة والخطبة . وصار يضرب ذلك مثلاً لمن له ظاهر الأمر وليس له من باطنه شيء ... »

هذه هي الصورة البارعة من حيث التصوير ، المؤلمة من حيث الواقع ، التي استهل بها الأستاذ فصله الأول : وصف الحال التي كان عليها سكان المملكة الاسلامية في القرنين : الثالث والرابع . وقد عزز هذه الصورة ببسط الأحداث

والخروق التي كان يحدثها هؤلاء الأتراك — ثم الديلم من بعدهم — في أطراف البلاد وفي قلبها من نهب وسلب ، وانتهاك حرمات ، وضبط أموال ، واذلال الخلفاء وتقتيلهم ؛ حتى الزنج نفسهم لم يخلص العرب وبلادهم من شرهم . هذا الى ما كان بين السنة والشيعة من جدال وقتال ، وما بين العناصر المذهبية من خلاف .

يقول الأستاذ : « هذه العناصر الجنسية من اتراك وفرس وعرب وروم وزنج وغيرهم ، وما تستلزم من عصبيات ؛ وهذه العصبيات المذهبية والطائفية من تسنن وتشيع ، ومن حنابلة وشافعية وحنفية ، ومن مسلمين ويهود ونصارى وغير ذلك ، كانت كلها حركات تموج بها المملكة الاسلامية ، تتعاون حيناً ، وتتقاعس حيناً ؛ وتؤثر في السياسة وفي الدين وفي العلم ؛ وتنشأ عنها المؤامرات السرية أحياناً ، والقتال الصريح احياناً . وكان لها كلها اثر واضح في كل ناحية من النواحي الاجتماعية : قد أثرت في الحالة المالية ، اما مباشرة واما عن طريق الحكم والسياسة ، فعمرت في ناحية وخربت في اخرى ، وعدلت في ناحية وظلمت في اخرى » .

ثم هو يصف ما كانت عليه الخاصة من غنى وترف ، وما كانت عليه العامة من فقر وبؤس ، وأسباب ذلك ، وما كان من نتائجه المفجعة من ثورات وخراب .

وينتقل المؤلف من وصف الحياة الاجتماعية السياسية الى وصف الحياة العقلية ، وما كان من اضعاف سلطان المعتزلة ، واعلاء شأن المحدثين ، ونصرة اهل السنة ، ثم يتحدث عما كان من حضارة وعلم وأدب ؛ ومن نبغ في الآداب والعلوم العربية من غير العرب ، كالفرس جملة ، ومن لم ينبغ كالترك الا افراداً ؛ ومراكز هذه الحياة العقلية من لغوية ونحوية وفلسفية ودينية وأدبية وعلمية ، في المشرق والمغرب العربيين . ولا يغفل ما كان من ذلك في جنوب فارس ، وفي خراسان وما وراء النهر وفي السند وأفغانستان .

وفي تضاعيف هذا الكلام ، من اخبار العلماء والأدباء والشعراء ومن الشعر

الاجتماعي والسياسي ، ما يحبب اليك متابعة هذا الكتاب والانكباب عليه ، حتى تبلغ منتهاه .

ويختم المؤلف كتابه بلمحة عن سير العلم في الأقطار الاسلامية التي فتحها العرب ، وما كان لذلك من فضل في بقاء الوحدة العلمية والفكرية ، بعد فقدان الوحدة السياسية فيقول :

«واذا فتحت بلدة فسرعان ما يذهب اليها العلماء في الفقه والأدب يعلمون أهلها الدين واللغة والأدب ، حتى تصبح بعد قليل مركزاً من مراكز الانتاج العلمي كالذي رأيناه في صقلية ، تفتح فيرحل اليها العلماء وتدوّي فيها حركة العلم وبعد قليل نراها مركز انتاج علمي وأدبي عجيب .

والحكومات من جانبها تنشيء الطرق ، وتقيم الرباطات والخانات لحاجتها الشديدة الى تنظيم البريد ، وتسهيل التجارة ، فكان العلماء في رحلاتهم ينتفعون بهذه المزايا ، كما ينتهزون الفرص لخروج القوافل الى الحج ، فينتظمون في سلك الحجاج ، ويرحلون الى البلدان التي يريدونها .

وكانت الرباطات كثيرة في مراحل المسافرين ، ويذكر الاصطخري انه كان في بلاد ما وراء النهر ما يزيد على عشرة آلاف رباط ، في كثير منها اذا نزل النازل قدم له طعامه ، وعلف دابته ان احتاج لذلك .

وقد زوّدت هذه الرباطات بالماء لحاجة المسافر اليه ، وعدت اقامة الرباطات وتزويدها من الأعمال الخيرية التي يقف عليها المسلمون بعض أوقافهم ... كل هذا جعل المملكة الاسلامية من مشرقها الى مغربها كأنها وحدة مهما تعددت دولها وحكوماتها ، فالعالم والأديب والفنان والتاجر لا يعبئون بالحدود التي ترسمها السياسة ، ويرون ان اللغة والدين تكسر حواجز السياسة .

وكان لهذا أثره الكبير في العلم والأدب ، ومن أوضح هذه الآثار ضعف الشخصية الاقليمية ، فليس علم مصر وأدبها متميزاً كثيراً عن علم العراق وأدبه ،

ولا عن علم خراسان وما وراء النهر والسند واديها ، كلها متقاربة لأن رحلة العلماء وشدة الاتصال قربت بين الفروق ، وما يظهر امتياز في ناحية الا استمدته الناحية الأخرى وحذقته واستغلته . فالفقه المالكي في المدينة ، والفقه الحنفي في العراق يؤلف بينهما أمثال محمد بن ادريس الشافعي ، واسد بن الفرات المالكي . والنحو العراقي يحمله الى مصر والى المغرب الراحلون الى العراق (لعله من العراق ؟) والمتعلمون على أساتذته ، والعائدون بعد ذلك منه . والشعراء على ابواب الملوك والأمراء ينتقلون من بلاط الى بلاط فيوحدون مناهج النظم . والوراقون وتجار الكتب يحملون كتاب الأغاني ورسائل اخوان الصفا من العراق الى الأندلس . ومكاتب مصر ، ومكاتب الأندلس ، والقيروان ، والمهدية ، وفاس ، وخراسان ، وغزنة ؛ تضم خزائنها أهم ما أنتجه العالم الاسلامي بقطع النظر عن اقليمه

بل العلماء انفسهم نرى شطراً من عمرهم قضوه في بلد وشطراً آخر في بلد آخر . شطر في مصر وشطر في الشام ، وشطر في الشام وشطر في العراق ، وشطر في العراق وشطر في فارس ، وهكذا حتى يصعب في كثير من الأحيان عد العالم مصرياً او شامياً ، وعراقياً ام فارسياً . ومؤلفو التراجم أدركوا هذا المعنى لجمع اكثرهم علماء العالم الاسلامي على اعتبار انهم نتاج مملكة واحدة كقطر واحد .

نعم توجد شخصية نتاج كل اقليم كالأدب المصري والشامي والعراقي والفارسي؛ والطب المصري والشامي والعراقي والفارسي وهكذا ، ولكنها شخصية غامضة خفية لا ترى الا بالمنظار الدقيق والبحث الطويل . واكثر ما يظهر هذا في منبع الظاهرة العلمية الأدبية حين تظهر . فظهورها في اقليم خاضع ولا بد لمؤثرات اجتماعية في هذا الاقليم ، كظهور المقامات في اقليم فارس ، والموشحات بالأندلس ؛ والأسلوب المسجوع المحلّى بالبديع في الري وما حولها ، والرسائل الشاملة لفروع الفلسفة — كرسائل اخوان الصفا — في البصرة . كل ذلك له علل اجتماعية

وتاريخية واقليمية مرتبطة بهذه الظواهر ارتباط السبب بالمسبب ، ولكن لا تلبث بعد ظهورها ان تقلد في سائر الأمصار ، ولو لم تكن العلة الأصلية موجودة ، وتقوم علة التقليد مقام علة الابتكار ، وتختفي الشخصية الأولى وراء المظهر العام للوحدة المشتركة »

من هذا الذي استشهدنا به ، يُعرف شيء من قيمة هذا الكتاب الجليل الذي أخرجه للأمة العربية الأستاذ الجليل . وليس لنا ما نأخذه على أستاذنا الا تساهله في بعض عبارات وألفاظ ، ان هي جازت لغير المؤلف ، وفي غير هذا الكتاب ؛ فما نحسبها تجوز للمؤلف وفي كتابه هذا على جلالة قدرهما . من ذلك : (وهو كلام جيد نظرياً) و (استمرت طوال هذا العصر) و (تبلور عداء الناس) و (هكذا فعلوا في الوزراء والكبراء والتجار) وإكثاره من استعمال السنية في مقابلة الشيعة و (النعلين المذهبين) بتشديد الهاء . و (صارت المملكة الاسلامية عبارة عن دول) و (اجاد المسعودي في ملاحظته وجه الشبه) و (لم تعد المملكة الاسلامية مخشية الجانب) و (فلما تملكوا حققوا نظريتهم في احقيتهم) و (اهاج شاعريته) و (لا يهمه المال بجانب ما يهمه العلم) و (بقطع النظر عن اقليمه) و (مات حول سنة ٤٣٠) و (فرأيت شعراء ممتازين في هذا العصر) و (يرجع الفضل فيها أولاً الى شخصيتين من أقوى الشخصيات)

وكالتساهل في كتابة الهمزة : (ملئوا) بدلاً من (ملأوا) (ولا يعبئون) بدلاً من (ولا يعبأون) .

ووقف نظرنا عند هذا البيت :

لئن جاد شعر ابن الحسين فانما لأجل العطايا والأُلها تفتح الأَلها

و (لأجل العطايا) نابرة هنا قلقة . لا تليق بقدر هذا البيت واعل الرواية :

(تجيد العطايا والأُلهى تفتح الأَلها)

ولسنا من رأيه في قوله : « المأمون — نصف الفارسي » فاذا كان المأمون تخرجه عن عروبته أو تسلبه نصفها ، أن امه فارسية ؟ فما القول في كثير من

ملوك أوربه كانوا ، ومنهم من لا يزالون الى اليوم ، ينتسبون الى أمم ويقومون بأمورها ، وآباؤهم — وأحياناً هم — ليسوا منها بل غرباء عنها ؟

ويقول المؤلف : (وقد استفدت من اشارات للأستاذ متز الى كثير من هذه المصادر) وقد يكون هذا قليلاً في جانب ما سبق لآدم متز ان أورده في كتابه : (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع) من نصوص وشواهد وبحوث وأشعار ونقول وحادثات أعيدت نفسها وبنصها مرة ثانية في ظهر الاسلام .

هذا ونحن نكرر شكرنا للأستاذ الجليل على هذا الكتاب المفيد الجليل .

عارف النكدي

البادية

تأليف عبد الجبار الراوي

مدير السجون العام في بغداد

ليت القارىء يفكر قليلاً في هذا العالم المديد الذي تشتمل عليه لفظة : البادية ، فمن البادية انحدرت الينا لغة وأدب وشعر امتزجت في بدء الأمر بلغة الحضر وأدبه وشعره ثم تعاقبت على هذا الامتزاج أحقاب غير قليلة فنشأت بعد هذا التعاقب روح جديدة في لغتنا وأدبنا وشعرنا ، ظهرت آثارها على شعرائنا وكتّابنا في الماضي ولا نزال نغرف من بحرها في الحاضر .

فمن الوفاء الرجوع الى البادية التي هي مادّة اوائل حسنا وفكرنا وعاطفتنا وذوقنا ومن الوفاء الكلام على مجامع نواحيها : على جغرافيتها وطرقها وآبارها وعشائرها واجتماعها ونظامهـا وغير ذلك ، وهذا ما توفّر عليه السيد عبد الجبار الراوي مدير السجون العام في بغداد في كتابه : البادية .

فلا يشاء القارىء أن يعرف شيئاً عن بادية العراق وبادية نجد وعن حدودهما وخصائص تربتها وحيواناتها الا عرفه ولا يشاء ان يعرف شيئاً عن طرق البادية وعشائرها وعاداتها واحوالها الاجتماعية: نظام حكوماتها ومعاهداتها واتفاقاتها الا عرفه .

شفيق جبري